الوقت والحرباء والكسندره

قصة بقلم
يوسف حبشي الاشقر

المهم الصيفة ، كل شيء آخر موجود . لكن ، لا . ليس عندي ورق ابيض . فتشت في الدرج حيث أضع الورق الابيض عادة . لم أجد ، فتشت في درج آخر ، وجدته . ليست المرة الاولى التي أجد فيها ما أطلب في غير المكان الذي يجب أن أطلبه فيه .

الآن وقد وجدته ما أعمل ؟ لا شيء ، لا شيء . المهم الصيغة ، تعبان ، تعبان .. نعسان ، نعسان .. أية صيغة ؟ صيغة ما ؟

الزهور على مكتبي من الجانبين . عن يميني ثلاث فلات وعن شمالي ثلاث داهليات ، لا أعرف اسمها بالعربية . على المكتبة ايضا مزهرية فيها زهور لا أعرف اسمها لا بالعربية ولا بالفرنسية . لم أتقن مرة لغة الزهور . لا أحبها . لا أكرهها أيضا . كجميع الاشياء لا أحبها ولا أكرهها .

عرفت الصيغة : كاميرا في الجدار المقابل ، تحت اللوحة ، تصور حركاتي . شريط يدخل من احدى أذنيّ ويخرج من الاخرى يسجل أفكاري . بعدها أتفرج على نفسي وأتسمع الى ذاتي .

تمنيات بأفكار سيدها الكسل .

فلنراجع النهار من أوله .

في البيت : استيقظت نعسان . شربت قهوة البيت مع حب الهال . من أين حب الهال ؟ دخنت غليوني . التبغ الذي أدخنه اختفى من المدينة ، ما أعمل بعد أن ينتهي تبغي ؟ هنا قلب المسألة .

في السيارة قرأت النهار ، تفرجت على الناس ، تسمعت الى حديث الملفوف والخس ومزروعات الشتاء من السائق .

في المكتب : شربت قهوة المكتب ، زارني النعاس في ظهري وكتفيّ وذراعيّ ووراء عينيّ . وضعت وجهي على كفي .

الكاميرا في الجدار المقابل . أحسست بالشريط يعبر رأسي من ضفة الى ضفة . رأسي نهر .

الصيغة ها ، الصيغة : اخترع حلما ، أحلم بشيء أحبه . لا شيء أحبه . أحلم بشيء كنت أحبه . كان فعل ماض ناقص .

أحسن شيء أن أكتب ما تصوره الكاميرا وما يسجله الشريط .

تمطيت : كل ذراع على حدة ، ظهري وحده ، رقبتي ، عيناي ، اصابعي ، كل شيء وحده ... تمطيت اجماليا ، دفعة واحدة ، بفعل مراجعة للتمطي بغية الحفظ . فتشت عن الاوراق ، كتبت : « القضية قضية أحلام . يضجر من لا حلم عنده ، ويكسل من أحلامه أكبر من امكاناته ، ويموت على الافل فكريا من يبدو له ان أحلامه كبيرة ولا يمكن ان تصغر » .

توقفت عن الكتابة . يكفي لهذا اليوم .

حتى موعد ذهابي الى البيت خمس ساعات ، من التاسعة الى الثانية ، « فويو » صفرت ، خمس ساعات ، خمس ساعات . ما أعمل ؟!

وفي البيت ما أعمل ؟ ما أعمل ؟ ألعب مع ابنتي الصغيرة ؟! ستقول احملني . لو انها تنام حدّي وتحكي لي حكايات ؟!

أنام ! لا ... لا انام ، نعاسي ليس نعاس نوم . نعاس ضجر . ردة فعل ضد ما لا أستطيع عمله . ضد ما لا اعرف ما هو الذي أستطيع ان اعمله .

تثاءبت . الكاميرا صورت رأسي بين كفي ، عيني على الورقة المكتوب في أعلاها سطران ونصف . خطوط الاسطر الرمادية ، حدقت اليها . الاسطر تختلط بفوضى . ارتحت لفوضاها ، سجل الشريط ارتياحي . لعبت معها : السطر الذي فوق جعلته تحت والذي تحت فوق . خلطتها ببعضها بسرعة ، كخفافة . عيناي خفاقة ـ سجل الشريط الخفاقة . فكرت بالكاتو : خفـاقة ، بيض ، كاتو . تعبت عيناي من التحديق ، من الخفق ، أغمضتهما . توقفت الكاميرا . توقف الشريط . أكلت الكاتو . أحسست اني جائع .

أخرجت محفظتي . أموالي : اربع ليرات . كيف اربع ليرات ؟ امس كانت سبعين . أخذت ورقة حسبت عليها ما صرفت : ٣٢ و ٦ و ٢٥ و ٤ و ٢ و ١ = ٧٠ . ما مضى فات .

امس كنت مثل اليوم ، قلت لا يكسر الضجر الا البذل . بالطبع بذلت من مالي ، لا أملك شيئا غير مالي . اشتريت : أربع شيكلس ، ذهبت الى السينما . اشتريت لعبا لاولادي ، أعطيت ابني ليرتين ، تعشينا في مطعم انا ... وزوجتي . الباقي : اربع ليرات .

مزقت ورقة الحساب ـ ورقة الكتابة ، تنهدت ، تمطيت اجماليا . جيد جدا ، حفظت التمطي .

تذكرت المال ، فتحت الصحيفة أقرأ عن سعر الدولار . تراجع سعر الدولار . يوم بدأ سعر الدولار يتصاعد خفت على مالي ، اشتريت به دولارات . اليوم التالي تراجع سعر الدولار . بقي

يتراجـــع .
أطبقت الصحيفة . حسبت خسارتي عقليا .
تحرك الشريط :

ما يعمل هذا الذي لا يعرف ما يريد ان يعمل ؟ قد يكون يجب طرح السؤال بهذا الشكل : الانسان الذي لا يعرف ما يريد ان يعمل كيف يعمل ؟

رن التلفون .
المكتب معتم .. السجادة خردلية .
رزق الله لم يعمل شيئا في حياته . لم يتساءل لماذا لا يعمل . أنا دائما تساءلت عنه كيف لا يتساءل .
أجبت على التلفون :
ـ مرحبا .
ـ . . .
ـ أريد آن
لم أعد اسمع ما يقول .
ـ نعم .
ـ . . .
ـ نعم .
ـ . . .
ـ نعم .
ـ . . .
ـ غدا اتصل غدا !
اقفلت ، رن من جديد ، رن . سكت .
دخل النحيل القصير ، تكلم . لا أحـــد يفهم منه ما يقول . لم أشأ ان تصوره الكاميرا ولا أن يسجل صوته الشريط . نزعتهما . قال :
ـ تعال معي !
ـ الى أين ؟
ـ نعمر هذا الوطن !
ـ قه قه !
قهقهت :كل الوطن ؟
ـ لا يا شيخ ! جدار منه .
ـ جدار ضد ...
ـ ما همّ ضد ما .
ـ ما دوري في المؤسسة ؟
ـ . . .
وصلنا . فتحت آنسة مقوسة الرجلين الباب . دخلنـا غرفة طويلة ، ضيقة ، عارية كالمسلخ .
في صدر الغرفة مكتب فورمايكا امامه كرسيان بينهما طاولة .

المسؤول عن الجدار جالس وراء المكتب يلبس طقما ابيض وراءه شباك . من الشباك يدخل النور على المكتب ، على ظهره ، حول وجهه هالة ، هالة كما في صور القديسين . صرنا خمسة ونحن نصعد . ضحكت . عبس . جلسنا حول المكتب . المكتب عار كطاولة لحـام . جلسنا على كراس عالية الارجل ، قصيرة الظهور ، ملبسة « سميلي كوير » . صرنا ستة ، سبعة ، ثمانية ، توالدنا ...

تكلموا عن عمار الوطن . تكلموا ... آخ ! كم تكلموا ! دخت . جعت . جعت . آهه وجـــدت الصيغـة . قلت : آكـل ! كيف آكل ؟ الحديث عن الجدار ، عن عمار الوطن ، الغرفة مسلخ ، آكل؟ جعت . صليت لاعجوبة الخبز والسمك ، وفجأة تصورت اصابــع زوجتي تلفّ لي عروسة لبنة مع جرجير وزيتون وزيت ورشة ملح . أصابع زوجتي ناعمة . اظفارها حمراء . أخذت العروس كدشت منهـــا ، قرشت بزرة زيتـــون ، بلعتها . كدشت ثانية ، ثالثة ، احسست اني أبلع ولا العوس .
سمعت الاشقر الطويل يقول لا اس آن اس ..
بلعت العروس دفعة واحدة .

كانوا يتكلمــــون . فتحت عينيّ على علبة فيها حلوى يحملهـا النحيل القصير يدور بها على المعمارين . أكلت منها ، رغى السكر على معدتي . قال النحيل : سيدنا ، وتطلع الى الهالة . رغى السكر ايضا ، رغى .. هربت ، وأنا خارج ، بصقت على جدار الغرفة ريقا لزجا ، لزجا .

* * *

لم أكن أعرف انها تنتظرني . قالت عيناها اللتان بلون التبغ :
ـ لا أعرف كيف هي سحنتك . حزين يمكن ؟ أو خائف ؟
استطالت شفتاي وقلت :
ـ لا ! أكلت حلوى ، رغى السكر على معدتي ، على قلبي .
وضعت يدي على شعرها ، ثم على كتفها . قلت في نفســي : هذه هي الصيغة .
قالت : بم تفكر ؟

قلت : أفكر ان هذا هو الحوار الحقيقي ، الحوار بوضع اليد ، أتعرفين آن المسيحيين العتق هكذا كانوا يتحاورون ليدخلوا الوثنيين الملكوت ؟ ووضعت يدي الثانية على كتفها الثانية واضفت :

ـ هذا هو الحوار المناولة .
هزت كتفيها معا وقالت :
ـ كفى ! أنت تكذب . لم تكن تفكر بكل ذلك .
لم أجب . جلست على المقعد الاحمر ، وضعت رجلا فوق رجل وقلت :
ـ والآن ؟
ـ وجهك كالفنمة . ووجه الغنمة لا يحاور ، يستدر الشفقة .
ـ هذا كله من خصائص الحوار .
ـ لا ياصاحبي . أولى خصائص الحوار الرفض .
ـ أهكذا تقولين ؟ وجهي كوجه الغنمة ؟
فوضعت يدها على يدي وقالت :

ـ لا ! كالغنمـــــة كلها : رأسها ، جسمها ، اليتها ، الغنمـة مجازيا ...
هجمت الى المرآة لارى وجهي فاستوقفتني . عدت الى مكاني ، رفعت فستانها عن ركبتيها فنظرت اليهمـــا مالستين كالاونيكس ، حارتين كالفستان الاحمر .

ـ ما ألذ الخطيئة !
ـ قلها مرة أخرى .
ورفعت فستانها اكثر وحدقت الى عينيّ وقالت :
ـ ما فعلت اليوم ؟
ـ لا شيء ! كنت أفتش عن شيء أعمله .. حتى جئت .
ـ كذاب ! تلفنت لهلا .
ـ لا والله !
ـ بلى ! أعرف انك تتلفن لها وتتكلمان ساعة ، ساعتين ..
ـ لا يا !

ووضعت يديّ على ركبتيها ، ملست بهما عليهما .

رفعت وجهها اليّ وقالت :

ــ ثمن الخطيئة عال جدا .

ــ أنا غني .

ــ لن تدفعه .

ــ سترين .

ــ قبلني على شفتيّ ...

بعدما قبلتها ، أشعلت سيكارة ، وقربت برجلها طاولةالسكاير وقامت فجلست عليها وتنهدت .

ــ مالك تنهدت ؟

ــ كي لا أموت .

ووقفت ، فرفعت فستانها أيضا وقالت :

ــ لم ابتعدت ؟

ــ أمتع عيني .

ــ أضعف الايمان متعة العين .

ــ أنت مستعجلة ؟

ــ لا . خائفة !

ــ العين أغنى الحواس .

ــ خائفة ان تكتفي عينك .

ــ لا . يا !

لم أكن أكذب ، كان شيئا كالوحش المتمدن ، كالماء الساخن ينزل في جسدي ، في داخله ، جسدي وعاء ، بلحظة عرفت انه وعاء . لذيذ الوعاء . المرأة وعاء .

ــ اقترب .

ــ اقترب عندما يمتلىء الوعاء .

ــ عمّ نتكلم ؟

ورفعت فستانها الى الوراء ، الوراء ، وأبقت يسراها عليه مجعلكا ، وباليمنى تدخن من السيكارة .

طافت المياه في داخلي . قالت : اين انت ؟ قلت : اسأليني من أنت ؟ ووشوشت ذاتي : « أنا خزان » . قالت : ثانيا تخبرني ان أخاك لا ينتظر ولا يمتع عينيه نصف سنة . يحمى معها حالا . فورا يقترب منها . قلت : انه وحش متوحش . قالت : اذن اذا تبارزت معه يقتلك . قلت : اسكتي ، كيف يستطيع هذا القشة ان يحمل السيف ؟ قهقهت وقالت : كان عليّ ان اكتشف انك لا زلت في أيام السيف .

كانت يدها تتحرك على فستانها المجعلك ، تملس على فخذها . التت برأسها على متكأ المقعد وغربت عينيها .

انقطع حس الماء في داخلي ، نمّلت رجليّ ، رأيت اصابعي تنتفخ . ركضت نحوها ، هكذا كرجت بسرعة ، لحقت بها . ركعت ، قبّلت ركبتها اليمنى ، نمت على اليسرى ، قلت : أيعرف هيرونيموس ان يفعل هكذا ؟

قالت : من هو هيرونيموس ؟ قلت : أخي .

قالت : وأنا ما اسمي ؟ قلت : ألكسندره . وضحكنا . كم ضحكنا .

رنّ جرس التلفون . قالت لي : اتركه يرن . قلت : عيب . قالت : العيب ثمن الخطيئة . قلت : طيب . سكت التلفون . ووقفت. قبّلت فستانها المجعلك وطيتي ركبتيها . رن التلفون من جديد ، وقفت على رجل واحدة ووضعت الاخرى على الطاولة وقالت : لا تجب. دق قلبي ، وكالغنمة ركضت الى التلفون وذهبت الى البيت .

كانت ابنتي تلعب على سريري ، كلمتها ، لم تجبني . حدّها لعبة عينها مدورة ، زرقاء ، حدّ اللعبة ابريق بلاستيك احمر وقماشة صفراء . ابنتي تنوّم ابنتها ، تخيط لها فستانا ، وتسقيها متى عطشت . مشطت شعري ، غنجت ابنتها فنرفزت . رميت لعبتها وقماشها وابريقها عن السرير وأفهمتها انه سريري .

وبكت .

تمددت على السرير ، سمعت تحت شباكي جدالا حول الاستعمار. هربت من الاستعمار . قفز ابني الى عنقي قال : لعبني بالحمار وصاحبه ، فدببت على اربع . ركب ابني على ظهري ، ثم ابنتي ، درت بهما في الغرفة .

سألني ابني : كيف يعملون البارود ؟ قلت له : اسأل جدك . فتح أبي القاموس ليرى كيف يعملون البارود ، ارتميت على الصوفا ، أخذت كتابا . قالت زوجتي : اما انت غائب ، اما تقرأ في كتاب . أطبقت الكتاب . اقتربت مني وقالت : طول هذا اليوم وأنا أتذكر المرحوم أبي . أنا ذاهبة عند أمي .

انتقلت الى المقعد ، فتحت كتابا آخر ، وتركته مفتوحا . قمت الى الغداء ، أكلت كثيرا . أتى صاحبي حكش أنفه ، شم اصبعه ، ضحك وقال : « كنت في المكتب تلفنت زوجتي قالت :

ــ الى البيت حالا ، أمك تضربني .

ــ ماذا ؟

ــ تضربني أمك .

قلت لاختي : أنا ذاهب .

ــ الى أين ؟

ــ الى البيت !

ــ الى البيت ؟

ــ أمي تضرب زوجتي في البيت !

ــ حسنا ، فلتربها .

ــ لا .. لا يجوز ، انا مسؤول عن زوجتي ، الخوري خليل قال لي . لا .. لا ..

آه آه زوجتي مصلوبة على جدار المدخل بالغلالة السوداء المرتفعة حتى نصف فخذيها وأمي بالفستان الرمادي المرقع واقفة خلفها تهز العصا البيضاء التي تنزل بها الغسيل في الماء الغالي . دموع زوجتي على الارض وردفاها يرقصان الجرك . قلت لهما ، فلتذهب كل واحدة منكما الى مكانها . ركضت الاثنتان معا الى المقعد الصغير في الصالون ، زوجتي أخف من أمي ، سبقتها . ارتمت أمي على الارض اه اه اه . وصارت تبكي .

اه . اه . اه .. ضحكنا . آلمني ظهري ، نمت عليه ، أبي يبصر بالورق ، فتحت عينيّ نصف فتحة . كنت لا اراه . ابنتي الكبرى تلعب حدّي ، قلت لها اركعي على ظهري . ركعت . قلت : لا ، خفيفة انت . ناديت ابني . قعد على ظهري . ارتحت ، أخذت ابنتي القلم من جيبي وكتبت بصوت عال : اه . به . ته : الطريقة الجديدة للتعليم .

علميني اياها .

سمّعت الابجدية على ذوقها .

ــ هجئي ! هل تعرفين ؟

ــ ما معنى هجئي ؟

ــ لا شيء . لا شيء . أنا كنت أعرف . الخوري الياس علمني .

« هجيء «كرج» ، وسبابة الخوري في انفه تنقره : كاف فتحة كا ، راء فتحة را كرا ، جيم فتحة جا ، كرج . جيد ! اقعد.

سحب سبابته اليمنى من انفه ، ووضع مكانها خنصر اليسرى . بـاء ضمة بو ، باء فتحة با ، باء كسرة بي . مرة ، عطس ، فنزل مخاطه على ذقنه وجبته . ضحكنا » .

رآتني ابنتي أبتسم فقالت : لم تضحك ؟

الخوري الياس عنده عشرة أولاد .

قال ابني : احك لي حكاية . قلت : نعسان . قال : حكـــاية قصيرة ، وقد عقدة الاصبع . قلت : قلبي اعمى لا يقشع الحكـاية . قال : عمره لا يقشع . انزل عن ظهرك . قلت : انزل . جئت بالمقعد الانكليزي ، وضعته مكانه على ظهري . قضمت احد أظفاري ، وبدات بالشـــاني .

قالت ابنتي : أكتب لي على الورقة . قلت : لا . قالت : لم ابق احبك . عاد ابني نادما لانه نزل عن ظهري ، رفع المقعد وجلس مكانه.

قلت لابنتي : اعطني الورقة ، وكتبت .

قال صاحبي : قم نشرب قهـــوة في الحمراء . قلت : لا ، قم نذهب الى السينما . قال : لا . جلس على المقعد . مدّ رجليه على المقعد الآخر . غفوت لحظات . استيقظت عليه يسالني : أين زوجتك ؟

قلت : لا اعلم . قميص نومها على السرير .

قدته بيده الى غرفتنا ، قلت : اليس كأنها ماتت ؟ قال : مالك تهجس بالموت ؟ أتتمنى لها لو تموت ؟ قلت : لا سمح الله . احبها . قال : يا كذاب . قلت : لا . قال : كم واحدة تحب ؟ قلت : لا تستطيع أن تفهم ذلك . أنت تتمنى ان تموت زوجتك ؟ فهز راسه وضحك مـن انفه وقال :

ــ ليتني أستطيع أن أتمنى .

ــ لا تستطيع أن تتمنى ؟

ــ لن تموت قبلي . أنا ساموت قبلها .

رجعنا الى الصوفا . قال : أيصـــدف أن تعيد نفسك ؟ قلت : لا افهم . قال : المقصود الترداد . قلت : بالطبع الترداد .

طلع صوت الراديو في المطبخ ، معه صوت الخادمة تغني . قمت الى المطبخ ، شربت من البراد . رجعت عنده ، سالته : ألم يطلـع ببالك أن تنام مع خادمة ؟ لم يجرؤ أن يقول لا . قال : ما نعمـــل الآن ؟ هززت كتفي . تطلعت ، قرأت جزءا من كلمة من عنوان جريدة تحت الطاولة . « النك ... » قلت لا بد ان تكون النكبة ، ثم قلت : النكسة . تراهنت مع نفسي : اذا كانت النكبة اذهب الى السينما ، واذا كانت النكسة اقعد بالبيت .

قعدت بالبيت .

حملت طفلتي الصغيرة ، درت بها المنزل . في غرفتنا رأت مشاية أمها على السجادة ، وقميص نومها عـــلى السرير . نزلت من بين ذراعيّ ، ركضت اليهما . شعرت ان زوجتي ماتت واني اقف امـام أشيائها ، احاول أن أعيد تأليفها وتجسيدها ، ان اخلقها لذاتي من جديد . لا يحزنني شيء اكثر من الاشياء التي لا تستعمل ، فكأنهـا أشياء ميت . علقت القميص وراء البـــاب ، دفعت المشـاية تحت السرير .

رن الجرس . دخل رجل أشعث الشعر ، حاملا نعيين : مريم .. ونزهة ..

رن الموت كالجرس ، كضجة على نحاس ملآن . وكأني لن اموت انا . استيقظت . لعبت طفلتي بورقتي النعي ، صحت : وجـــدت الصيغة ! وجدت الصيغة ! قال صاحبي : اية صيغة ؟ قلت : قم نعزّ. قال : بمن نبدأ ؟ قلت : بنزهة ، ابنها صاحبنا .

الميتة في سرير من خشب الجوز العريض . شمعة خلفه وشمعة قدامه . ابنتها ، اربع من اصابعها بين أسنانها . ابنها في الغرفـة الثانية . قال له صاحبي : ما كان عمر المرحومة أمك ؟ أجـــابه : عشرون . قال لي صـــاحبي : ما عمرها ؟ قلبت شفتي ، قلت : ثمانون ؟ أكثر ؟ لا اعلم . قال : الميتة الثانية كـانت نادبة ، ندبت أبي . أتذكر دفن أبي ؟ قلت : اذكره ، وعرس اخيك ايضا . مـن الرجل الذي حدثك ؟ أتذهب الى دفن الثانية ؟ قال : بالطبع ، ندبت أبي قلت لك . سلمّ الكاهن الطويل الاشيب الذقن على الحاضرين دار رجل بالقهوة والسكاير . قال صاحبي :

ــ هل تعود ذكرياتك حتى عمر اربع سنوات ؟

قلت :

ــ عرس أخيك .

قال :

ــ صحيح ! ١٩٣٤ . أقول ان الميت يرتاح .

نظرت اليه عاتبا ، قال :

ــ والله يرتاح . يرتاح من جسده ، من غسيل رجليه ورائحـة عرقه والبثور في وجهه والوسخ ، كل الوسخ .

صورة قلب يسوع عوجاء في رأس الجدار . قبّلنا ابن الميتة وذهبنـــا .

لم يكن أحد يندب النادبة . جنزوها في كفر ملات . بلا صوت ، ولا حسرة عالية ، قال لانها كانت تندب حبا بالندب ، لا بالميت . قلت مثل جميع الاحياء .

قال لي الرجل في الجناز : سمعت صوتك بالراديو امس .

رفع الشرطي قبعته وسلّم عليّ .

نظرت اليّ الصبية الحسناء التي بيتها خلف المدفن كأنها تنظر الى خطيب مقبل .

سلمت عليها بيدي لترى في اصبع مسكينة من اصابعي حلقـة صفراء لو كانت في رقبة حصان لسموها لجاما .

سمعت كاهنا يغني في الجناز . وحده ، كان صوته يطلـــع بين رفاقه الكهنة ، ويقول بلحن سرياني وهو ماش خلف التابوت : « غريبا عن ديارك » . لم أنتبه لما قبلها ولا لما بعدها . رددتها بلحنهـــا ، وحدي : « غريبا عن ديارك » . قال لي صاحبي : « منذ خمسوعشرين سنة هذه لم تهاجر » . قلت : من لم يهاجر ؟ قال : « الاقحوانات » . نظرت اليها على حافتي الطريق ، بيضاء ، صفراء ، خضراء . وزهور اللوز ايضا ، قلت له :

ــ « غريبا عن ديارك » .

غرّيت يميت ثالث . كان اخوه يدق باصابعه على خشب الكرسي ويتثاءب ، ثم قال : « خمسة ايام ولم أنم » .

في الغرفة المحاذية ، النساء يعولن كلما دخلت امراة لتعزي . أمه كالبلهاء ، تدخن وتدخن . احدى أخواته تراقب الناس ، ومتـى بكوا بكت .

عمره سبع عشرة سنة الحق معهن . فليعولن . يستاهل العويل . مات بالسكتة القلبية . قال :

ــ أنا أعلى معدتي يؤلمني .

خفت . في الشارع رأيت اني لم أزل أتنفس نعمـــة الحياة . فرحت ، ملك الحياة انا ، في يدي صولجان الرجاء وعلى مفرقي تاج السلام وفي قدمي حذاء الفراسخ السبعة ، اعبر به الاودية والجبال. بوركت الارض التي أدوس وطوباي طوباي لم أزل حيا يعود الـــى البيت .

زوجتي في البيت . من ملك تدحرجت الى وزير ، ثم الى مدير. تدحرجت ليس لان زوجتي تخيفني ، زوجتي تحبني وأحبها ، بل لانني كلما تذكرتها ، تخيلت باب سجني الذي لا يفتح ، وتدحرج بي كـــل شيء الى مستوى المسجون .

ذهبت عنـــد صاحبي . سمعت موسيقى . راقبت امـــه تقرأ الجريدة ، نظارتاها على أسفل أنفها العريض السمين . راقبت زوجته تنظر اليه كأنه ملح على ملعقة عسل . أخذت من عنده كتابين .

✶ ✶ ✶

النور الأصفر في الحديقة العامة ، يتوج كتفي التمثال الـذي لا رأس له . المقاعد في الحديقة فارغة . زوبعة تكنس الارض وتـدور بالتراب ، وفتات الورق ، درجا لولبيا يعلو فوق انـوار الشارع . نقاط مطر موحلة تنزل على شعري وفي عنقي . يدي عرقت علىالكتابين اللذين بين أصابعها . نقلتهما الى يدي الاخرى .

حاولت أن أدخل الحـديقة . البوابة مقفلة والدرابزين عال . وقفت على الرصيف ، بطني على الدرابزين .

الساعة الحادية عشرة ، الطريق مقفر من النـــاس ، سيارات السرفيس تمر ، تزمر لي وتتوقف حدّي لحظات ثم تتابـع سيرها . عيناي تتسليان بالخضرة والمقاعد والتمثال الذي لا رأس له .

بدأت باشارة الصليب على صدري . لم أنه الصورة ، رسمت نصفه الايمن فقط . النصف الآخر تركتـــه لآن آخر . لا أحب أن أضحك من المسيح . هكذا . وجهه بريء ، جدّي ، حزين ، ذكـي ، نبي .

لمست حجرا صغيرا وضربت به التمثال الذي لا رأس له . دخل رمل الى عينيّ ففركتهما بيدي الحاملة الكتابين . الاخرى كانت في جيبي أخرجتها ، أنهيت بها صورة الصليب على كتفي اليسرى .

بقي الرمل فيعينيّ وراحتا تدمعان . تنفست التنفسالاصطناعي، الحبل الاصطناعي ، والبكاء الاصطناعي .

ظهري الى الشارع لا أريد ان احميه . لا استطيع . كل ما وراءه فراغ . الاربعون سنة التي تراكمت عليه فارغة ، مجوفة لا أستطيـع أن أستند اليها .

يجب ان اعيش بعد ، قلت فاملأ التجويفة .

بم ؟ بأي شيء : بتراب ، بحجارة ، بعمارة ، بمال أتبرع بـــه لبناء مذبح كنيسة ، أي شيء .

التجويفة تجذبني اليها ، كأن بها ريحا لا يقاوم ، ريح الراحـة والكسل والارتخاء .

لما تبين لي اني لم أعد أرى التمثال الـذي لا رأس له أوقفت تاكسي ، أخذني الى البيت .

كان غسيل أولادي على شريط الشرفة . وقفت تحت الشرفـــة أنظر الى الجوارب الصغيرة والقمصان الصغيرة والبنطلون الصغير والفساتين الصغيرة ، يلعب بهـــا الهواء . أمس قال لي صاحبي : الزواج قيد ، الاولاد قيد ، وأعجب للرجل يفتش عـن قيود أخرى خارج هذين القيدين . حككت أذني لكلامه ، وقلبت شفتي . البيت معتم . أضأت الدرج .

خرجت الى الشرفة ، وكأني أعزف على البيانو . مررت يـدي على القطع المغسولة . عدت الى الغرفة . قعـدت علـى السجـادة . طوقت ركبتي بساعديّ .

لا أستطيع ان انام . من زمان لا استطيـــع ان انام . الفراش عدوي ، يدفعني من على سطحه الى السجادة فاتمرغ عليها ، أحاول أن أقرأ ، أحاول ان اكتب ، أحاول ان افكر ، أحاول ان انام فـلا أقرأ ولا اكتب ولا افكر ولا انام ، بل ادور لولبيا حتى اعلى من سقف غرفتي ، كالرمل ونتف الورق ، ولا اصل الى اي مكان ، بل تذريني الزوبعة ذرة ذرة هنا وهناك وهنالك .

زوجتي نائمة تحلم بالروح الشقيقة التي تفتش عنها . قالت لي منذ أيام ان الحوار بيني وبينها مقطـــوع ، وهي بحاجة الى روح شقيقة . قلت لها : لا أومن بعالم الارواح . على كل لا بأس !

قمت عن السجادة . حملت الكرسي . خرجت الى الشرفـة . جلست تحت الثياب المغسولة . الزوبعة لم تزل كما كانت . شريط الحديد يهتز كوتر عود ثخين. سقف التوتياء الـذي بجانب بيتنـا يرعـــد .

✶ ✶ ✶

لو آخذ التلفون وأكلم هلا ! أنا أيضا عندي ارواح شقيقـة . أمس قالت لي لا تنظر اليّ هكذا ، تشلني .

عدت الى الغرفة ، وضعت التلفون في حضني ، جلست علـى كرسي ، أقفلت الباب ، كلمتها بصوت خافت :

ــ حلمت بك أمس الليل كله . لم أنم أمس . لماذا لم انم ؟ كيف كنت ؟ تماما كما كنت تقولين لي اني أشلك : منتصبة عـلى الكرسي العالي . لماذا كراسيكم عالية ؟ ستيل لويس الثالث عشر ؟ ما همني من لويس الكذا ؟ أعرف انها عالية وان رجليّ لا تطـالان الارض عندما اجلس على واحدة منها . كذلك رجلاك أنت . كنت على الكرسي وأنا انظر الى عينيك .. كلك عينان . أحب عينيك .

ــ أكره الحديث على التلفون .

ــ . . . .

ــ التلفون يشوه الحضور . صحيح ... صحيح . التصور قد يكون احلى من الحضور . هكذا تتصـــورني أجمل مما انا . يصير شعري اسود كما تحبه ، وعيناي خضراوين وجسدي ...

ــ لا أفتش عن الحلاوة أفتش عن الكثافة ...

ــ يخيل اليّ وأنا أحادثك على التلفون اننا خارج المكان الملموس، لان واحدنا لا يرى الآخر .

ــ اللامكان تقولين ..

ــ تماما ، لاننا نتحادث ولا نتلامس ، فتصبح انت صوتا لي ، وانا صوتا لك ...

ــ والصوت أقرب الحواس الى اللامكان ... غرغرة بالكلمات .

ــ كذبت .

ــ لا لم أكذب .

ــ بلى .

ــ متى ؟

ــ عندما قلت لي اني أثمن ما عنـــدك . عندك أولاد وزوجة . ثم ، ليس هذا المهم ، المهم اني شعرت انك تكذب .

ــ قد لا تكون كذبة بل فورة كلام ، ثورة احساس .. لو كنت قربي وكنت أقبلك لما قلت لك ذلك . القبلة كانت عبرت أحســـن وأكثر وأجمل . صحيح . الحق معك . نتكـلم كثيرا . تريدينني ان أنتبه لكلامي معك ؟ لا اسمعك جيدا ، سمعي ثقيل نسبيا . لا . انا جاد سمعي ثقيل ، ارفعي صوتك . آهاه ، فهمت : تريدينني ان انتبه لكلامي معك ... لانك تأخذينه عن جدّ ، تصدقينه ، طيب .

✶ ✶ ✶

هدأت الزوبعة قليلا . نظرت الى ثياب أولادي على شريط الحديد وقد لفتها الريح ، قلت لها سأوقف الحديث والحوار ، وهكذا ارتاح قليلا .. هه .. هه .

قمت وبسطت الثياب ، جئت بكأس ، وعبات الفليون ، أبدلت الكرسي ، بآخر مريح .

ــ قلت لك جسدك لا أفتش عنه . على الاقل الآن .. ما ؟ فعل النسيان ؟ لا تتقيدي كثيرا بالكلمات ، اذهبي الى آخر معناها ، الى جوها ، الكلمة كلمة ، المهم بم تعبأ . فعل النسيان ليس المقصود به الفعل الجسدي فقط ، يمكن ان يكون غير ذلك . بالطبع ، بالطبـع يجب أن يكون مع امراة . على كل اجرحك ان قلت لـك ان جسدك

لا يهمني . بلى . لا تكذبين ، تكرهين شكلي : خدي ويدي الكبيرتين ؟ لاني أحب غيرك ؟ طيب ، طيب ، يا سيدتي ، لا ، طيب لا ، ليس طيب نعم . غيرك شيء آخر . لماذا ؟! هكذا . لكل واحدة... لا اعرف أية كلمة استعمل .. لذتها او لذتي بها ، اسلوبها ، او اسلوبي معها. شيء من هذا النوع أريد ان اقول . كيف انا الآن ؟ جالس على كرسي، وقد خلعت خاتمي وساعتي . لماذا خلعتها ؟ كي لا أشعر بشيء يقيدني. اذا كنت لا تبغين جسدي ولا ابتغي جسدك لماذا نتكلم معا ؟ اود لو أفهم ! آ ، قد تكون محاولة للرجوع الى أيام الشباب ، ايامنا الاولى ، ايام الوحدة المملوءة بالاشباح الحية ، اللابسة احسن ثيابها الواضعة أجمل وجوهها .

أنت بحاجة الى من يتحاور معك ، يخرجك من ذاتك . أعرف ذلك .. ايام الشباب ؟ اتركيني أسمي حاجتك عيب الانفراد ... لا ، لا تجفلي . كلنا ، نعم كلنا ، حتى العنق ، تغمرنا حاجة هذا العيب ، اله العيوب ، ملاك الخطايا . لماذا ؟ جميعنا تلاميذ خوارنة وراهبات ، ولا تغفر سوى الخطيئة نحو الذات . خطيئة المازوشية . لا ، لا تظني اني اشعر بالسقوط الخلقي ، ولا بسقوط الملاك ، ولا بشيء يشابه هذه الاسماء . انت وأنا نفتش عن فردوس . هذه هي الحقيقة . الطبيعي فقدناه في يومياتنا ، في تفاصيلها ، ولا يمكننا العودة اليه ، لذلك نحاول ان نبني فردوسا اصطناعيا ، يكون له حجم ذاتنا التي لم تتحقق وآمالنا التي نريد ان نبقي لها أبعاد الحلم. كل ذلك بواسطة عيب الانفراد ... الفكري . وكم يدوم هذا الفردوس؟ يدوم ما يدوم ، ما همّ الزمن ! يكون قد وجد ، قد أوهم على الاقل بالحلم ، وعندما يروح لا بد ان يبقى شيء منه . ماذا ؟ تريدين ان تظني انه أبدي ؟ اذن ليس لك الا ان تؤمني به كذلك . ويعطى لكم .

انتظري قليلا ، سأعود .

فتحت باب الشرفة . الزوبعة لم تزل قائمة ، ووقفت لحظات .

الرمل يملأ حاجز الشرفة . الثياب تدور حول الشريط ، صعودا ثم نزولا . الدنيا تمطر وحلا . لا أرى دخان الغليون في العتمة . أعرف انه مشتعل من وهج جمرته على خشبته . عندما أدخن ولا أرى الدخان لا أستطعم بشيء .

نزل الشتاء عن جد ، مددت يدي بالغليون خارج سقف الشرفة التي فوقنا ، سمعت الماء على الجمرة يعمل : تش ، تش ، وشعرت به على يدي يملأ كفي التي بها الغليون . تذكرت هذا العنوان : « ساعة الذئب » لانغمار برغمان ، ساعة الذئب : الهزيع الاخير من الليل .

نزل من الغليون فحم وتبغ ورماد رطب على يدي . مسحتها على حاجز الشرفة ، أرجعت المقعد حتى الجدار كي لا يتبلل . سمعت هرا وهرة يتناغيان كأنهما يتقاتلان . ما أعلى كلام الجنس بين الهررة. وقفت على المقعد لارى أين هما ، تذكرت ان الهررة تتخبأ لتفعل ذاك ، نزلت عن المقعد .

تركت باب الشرفة مفتوحا ، دخل الهواء الغرفة . أطللت على سرير زوجتي ، رأيتها غافية ، مفتوحة الفم . عنّ ببالي ان ادخل اصبعي فيه . رجعت على رؤوس اصابعي ، آخذت السماعة .

قلت لها : أعرف جيدا ما معنى ابن اربعين . أشعره بعروقي . الاربعون ، معناها العتبة ، عتبة الزوال ، على الاقل بالنسبة للذين يشعرون انهم لم يحققوا ما حلموا بتحقيقه ، تلزمهم شهادة مؤقتة ضد الزوال ، يلزمهم وقت يعطيهم الامل بتحقيق شيء .

قالت : أتساءل اذا كان ابن اربعين يؤمن بما تفعله أنت . يتلهى مع امرأة على التلفون . ليس هذا من عمره ولا جلد له عليه . ابن اربعين هو ابن الواقعية ، وقرين الاشياء ، لا ربيب ما توهم به .

قلت : قد يكون الحق معك . لكنني ما زلت أرى في هذا التلهي ما ينسيني ، ما يشغلني ، ولانه من الصعب على ابن اربعين ان يحمل البندقية ويقول : أودعكم أنا ذاهب الى الحرب ! لماذا أضحك ؟ أريد ان اقول أن ابن اربعين يعود من الحرب ولا يذهب اليها ، فاذا لم يكن قد راح قبلا ، فلن يروح .

لم أسمع . اتكلم واتكلم ؟ عال . وما تريدينني ان افعل غير الكلام ؟ قضيت عمري عاجزا الا عنه ، به العب واتسلى ، وكل شيء . احيانا كنت عاجزا جنسيا . الموضوع ليس هنا . بل هو عجزي النفسي ـ المعنوي . لا . ارجوك . لا تتهميني بالصفاء قد لا اكون كما تعتقدين ، قد يكون هذا الذي تسمينه صفاء طلاء ليس الا . لماذا قد لا يكون ، لانه يناسبني . لا ... لا . لا الشغل ، ولا المال ولا شيء . اكره السفر ، اكره الناس الذين لا اعرفهم ولا احب الذين اعرفهم ... بالطبع عندي امرأة أحبها ، معلوم . مؤكد اني انام معها ، وألتذ أيضا . لماذا ؟ كيف لماذا ؟ غلطانة يا سيدتي ، أو انك تحاولين الغلط . انا اعلن ان الجنس هو المنفذ الوحيد الممكن شعبيا ، في الوجود . قد تكون هنالك منافذ معه ، ولكن لا منفذ دونه ، وهو وحده يكفي . اعني انه الاصلي ، والمنافذ الباقية هي الفروع . ماذا ؟ تدعينني الى منفذ آخر ؟ غدا ؟ اه اه اه ، اعطيك حتى نهاية العمر . أو كنت ستجدين المنفذ غدا ، لكنت وجدته امس يا سيدتي . لا . لا . تحتقرينه ، بالعكس ، تفتقدينه جدا ، كثيرا ، قد يكون افتقادك اياه هو افتقاد لطريقة ممارسته لانك لا تستطيعين ممارسته مع من تريدين . انا مثلا ! لانك لا تريدين ؟ طيب ... طيب. مع ذلك لا تستطيعين ، أكان عدم استطاعتك عائدا للارادة ام لسواها .

* * *

دخلت الى المشى .. صرخت بصوت حيادي ، مبهم : «قوموا» .

قام ابني محمر العينين فقلت له :

ـ انا ضجران . تعال العب معي .

ـ احك لي حكاية .

ـ لا ! اطعمك شوكولا ...

ـ لا . لا اريد شوكولا . اريد حكاية .

تذكرت الكسندرة : ركبتي الكسندرة ، فخذيها ، معصميها . قفز ابني على كتفي . انزل ! قلت له ، فلم ينزل . زكزكته في اصابع قدميه ، ضحك من كل قلبه ، نزل ، استلقيت على الصوفا . حلمت بالكسندرة ، فخذيها ، طيتي ركبتيها ، صدرها ... فستانها المجعلك .

قلت : أنام على هذا الحلم . ذهبت الى سريري اتابعه هناك ...

كانت ألكسندرة تلبس فستانها الابيض المنقوش بالزهور الحمراء والذي على خصره زنار احمر .

لحق بي ابني ، انسل تحت لحافي . رأيتها تقترب مني ، كنت امسك بيدها . قال لي ابني : ما معنى عاصفة بالفرنسية ؟ قلت له : اتركني الآن . أمسكت بخنصرها ، أدرت وجهي نحو الحائط ، ركع ابني في السرير وهزني : ألا تريد ان تقول لي ؟ أغمضت عيني . فتحهما باصابعه الصغيرة وراح يضحك . قلت له : اتركني قليلا ، اريد ان انام . قال : تنام ؟ الآن أيقظتني . درت نحوه ، طوقته بذراعيّ وكبلت يديه بهما ورحت أحلم غصبا عنه بالكسندرة وفستانها ، وبهلا وعينيها الكبيرتين يرتجف جفناهما كجناحي فراشة ، وبزوجتي بالغلالة السوداء ، القصيرة ، القصيرة ، وأنا ألعب بهن : تارة رأس هذه على جسم تلك ، وطورا أراهن جسما واحدا برؤوس ثلاثة ، وطورا آخر رأسا على ثلاثة اجسام وانا ... انا اخطبوط لا تعد اياديّ ، أياد طويلة ، تطال اي شيء ، كل شيء : الوقت والحرباء والكسندرة .

بيروت

يوسف حبشي الاشقر